سبق صحفي

للكاتب الأمريكي: جيمس تي ـ فاريل James t. farrel

شقّت قلب الازدحام المروري سيارة كبيرة لتوزيع أعداد صحيفة «شيكاغو كوستشنر» وانطلقت هادرة لاتلوي على شيء ميممة شمالاً صوب جسر شارع «كلارك»... وزلزلت الشارع نافثة غاز أول أكسيد الكربون من عادمها المهترئ... فيما أطلق قاطعها المفتوح فواصل في منظومة الضوضاء المصمة جرحت أديم الفضاء بوقعها الذي لايطاق.

كانت تلك هي فاتحة شاحنات التوزيع. ووقف «دينيس مكديرموت» عامل التوزيع المتسلط على حافة ذيلها متعلقاً بحبل قوي.

كان وسيماً... قوياً... ثملاً برحيق الشباب ولذة المنصب الجديد... تبدى ذلك كله عبر تكشيرة خيلاء يقابل بها كل من صادفه... ولم لا وهو يمتطي صهوة شاحنة مهيبة فيما يمتطي رفاقه من موزعي الصحف الأخرى عربات تجرها الخيول!

واهتزت مفاصل السيارة وأزَّت وهي تعبر الجسر الوعر فيما كان «دينيس» يسترجع صفحاتٍ من أيام صباه السالفة تلك التي مرت وتولت وسوف لن تعود...لن!

نشأ في شمال المدينة وتربى في شوارعها... قبل أن يلتحق بعمل في إحدى دور العبادة... وكان منسوبو تلك الدار يرمقونه بدهشة مقنَّعة لايجرؤون على إظهارها... وعجبوا كيف أن فتى ذكياً يعمل بدار للدين لايكف عن المناكفة واختلاق الشجار مع الناس.

وكان ذلك قبيل طرده من المدرسة للمرة الثالثة والأخيرة. وكان والده من طائفة المهاجرين الآيرلنديين وعاملاً غير مؤهل عيّن على وظيفة متواضعة بمساعدة من أحد أصدقائه، فخفضت من أسهمه لدى أهل حارته فيما يختص بالتركيبة السياسية التي اشتهر بها الإيرلنديون.

وأنَّى حلّ «دينيس» أو ارتحل... كان يجد أمامه طوائف من المتسكعين الأشرار... تحتضنهم منعطفات وزوايا الحي فنشأ على ذلك واعتادت نفسه على التوغل في بؤرة الشر واستجلاء أسرارها ومكنوناتها... وتشبع بعادات رفاق السوء وتقاليعهم... بل أنه تجاوز ذلك حتى فاقهم تفقهاً فيها وتبحراً، فكان يقود طائفة أشقيائه في غارات مفاجئة على عابري السبيل ممن تلفظهم حانات الحي فلا يشعرون بما حولهم أو يدرون.

ولأن «دينيس» كان يتحلى بخصال ذميمة عدة كان أقلها التهور وسرعة الغضب وتقلب المزاج فقد خوّل له ذلك كله تسنُّم مراتب عليا في عالم الجريمة والعنف فعيّن بديلاً للمضربين عن العمل وعضواً في سلك الحروب المشتعلة بين أصحاب سيارات الأجرة قبل أن يلفت انتباه جريدة «شيكاغو كوستشنر» لتعينه موزع صحف لديها ويخوض بذلك معارك ضارية مع موزعي الصحف الأخرى.

وقبض عليه مرتين بتهمة مهاجمة الأبرياء بقصد السرقة، على أن الدوق «أو كونيل» وكان قد عين على منصب النائب العام تدخل مرتين لإطلاق سراحه.

وكان «دينيس» يقف بأنفةٍ وغطرسة وخيلاء على ذيل الشاحنة ليظل يوزع الصحف في أرجاء ومنعطفات الحي العتيقة... وفي الأمكنة التي اعتاد أن يقف فيها ـ زمناً مضى وتولى ـ كيما ينادي على الصحف. وكما كان كثير من موزعي الصحف سالفاً يحتالون عليه بإعطائه نسخاً أقل عدداً من المطلوب مع استيفاء الثمن كاملاً منه، فقد امتهن هو النهج ذاته ـ مع من كانوا في مستواه العلمي ـ من الباعة الصغار المساكين كيما يعبوا بدورهم من كأس المعاناة ليدفعوا الفرق رغم ضآلة مكاسبهم، وإذاً فقد أخضعهم إلى تجربته المهنية المريرة ذاتها.

وأطبق يده على الحبل الذي يستند إليه حينما انحنت الشاحنة فجأة عند إحدى المنعطفات قبل أن تتوقف بمحاذاة ركن لبيع الصحف ليقذف «دينيس» إلى الباعة بحزمة تحوي خمساً وأربعين نسخة من الجريدة:

ـ كم نسخةً تحوي؟

سأله الصبي المكلف ببيعها وملامحه تنطق بملاحم حزينةً من إرهاق وبؤس... وثقب كبير يتوسط موضع الركبة في شرّابه الأيسر.

ـ العدد المطلوب! بها خمسون نسخة! رد «دينيس» بصوته الغاضب المزمجر... المهدد المتوعد كالعادة!

ـ ما وصلنا الليلة الماضية سوى خمسة وأربعين ـ عددتها بنفسي!

قال الصبي بتحدٍّ راعش تعوزه الثقة.

ـ خمسون! قلت لك!

ـ حسناً... لكنني عددتها بنفسي ـ ردَّ الصبي ـ بصوت إلى الأنين أقرب. وفرك «دينيس» أذن الصبي اليسرى بإصبعين قويتين وأعاد السؤال عما وصله من نسخ!

ـ لقد عددتها... رد الصبي بنبراتٍ متكسرة!.

وعاجله «دينيس» بضربة قوية من قفا يده على فمه قائلاً له بأن نسخ الأمس كانت خمسين ثم قفز إلى الشاحنة بخفة تاركاً الفتى يعدّ النسخ الجديدة ودموع حارة تهمي على خديه ونشيج حادّ يهز كيانه.

ـ كيف تسير الأمور يا «ووب»؟ سأل دينيس «روكو مارتيني» في المحطة التالية.

ـ بخير أيها الإيرلندي ـ رد «روكو» غامزاً بعينه.

obeikandl.com

وفيما كان الأخير يفتح رزمة الصحف سارع «دينيس» بالقول أنه وأحد أصدقائه قد اعتزما سرقة أحد المنازل يوم السبت المقبل وإنهم بحاجة إلى شخص ثالث ليقوم بالحراسة وعرض «دينيس» أن يتولى «روكو» تلك المهمة مقابل ربع الغنيمة. ولما وافق «روكو» اتفقا على موعد يلتقيان فيه لبحث التفاصيل برمتها.

بعد توقفين ما حدث فيهما شيء يذكر، اتجهت الشاحنة إلى ركن موقف عنده صبيان يتشاجران، وقفز «دينيس» فوقف على مقربةٍ منهما... واضعاً يديه على جنبيه في سخرية لاذعة. ولاحظ أن أحد الصبيين كان يحمل رزمة من صحف الـ «شيكاغو كوستشنر».

ـ ما المسألة؟ هاه!.

هذا «الولد» يحاول أن يتدخل في عملي! رد الصبي الآخر... والذي كان يعمل بائعاً لصحف «شيكاغو كوستشنر».

وألقى «دينيس» نظرة مزلزلةً على المتطفل ذي الوجه المغطى بالنمش فيما تراجع الأخير بضع خطوات مضطربة.

واستعان الصبي الأول بـ «دينيس».

ـ هذا المكان يخصني! أليس كذلك يا «دينيس»؟.

ـ هذه بلد الحرية ـ رد الصبي الآخر وسأبيع صحفي في المكان الذي يحلو لي!.

ـ فتلك هي المسألة إذاً؟! قال «دينيس» بحدة قبل أن يلتقط صحف المسكين فيبعثرها... ومدّ الصبي يده لالتقاطها فلوى «دينيس» ذراعه وضربه في ظهره محذراً إياه... آمراً تعيس الحظ بعدم مزاولة مهنة بيع الصحف في ذلك المكان... ثم عمد إلى صحفه فمزقها وطلب من الصبي التابع لصحيفته أن يخبره في الحال إذا ما عاد الصعلوك إلى البيع في ذلك الموضع بالذات!.

obeikandl.com

واتجهت الشاحنة «بدينيس» بعد ذلك إلى ركن البائع «إيليس القزم» لم يكن يحبه... فقد كان يضع صحف «الكوستشنر» في الزاوية الخلفية من رف بيع الجرائد... وأمر «دينيس» سائقه بالالتفاف حول الموقع فيما نزل بخفة وسار الهوينى إلى حيث يقف البائع:

ـ أما حذرتك من وضع صحفنا في الخلف؟!

ـ أجل... ـ قال الصبي ـ بيد أن «موقز» كان هنا أيضاً وأمرني بوضع صحفهم في الواجهة الأمامية!

ـ فعل ذلك؟

أجل!

ـ وماذا قلت لك؟

ـ لا أفهم ما يمنعكم من ترك صبي مثلي في حال سبيله!

ـ لاتفهم... هاه؟ قال «دينيس» وقد لمح في عيني «إيليس» نظرة لم تعجبه ـ أعد صحفنا إلى مقدمة الرف!

ـ لكي يعود «موقز» فيذيقني الأمرين ـ.

ـ غيّرها قلت لك!.

ولم يرضخ «إيليس» له! ما انصاع للأوامر... فابتدره «دينيس» بصفعة احمرّ لها خدّه... وضع المسكين يده على موضع الصفعة المتوهج قبل أن يتراجع قليلاً فيخرج من جيبه مطواةً لوّح بها في تكتيكٍ دفاعي بحت طالباً من «دينيس» أن يدعه وشأنه. على أنه ما تركه في حال سبيله تقدم صوبه، فيما كان المذعور يقلّب مطواته في حركات هوائية وفجأة جرحت سكين الجيب رسغ «دينيس» فما كان منه وقد عيل صبره وتناذر غضبه إلا أن أخرج موس حلاقة من جيبه وعندما هاجمه الصبي ثانية مدافعاً عن نفسه... تقدم «دينيس» نحوه فجرحه بعنف في

حلقه محدثاً شقاً غائراً امتد من إحدى أذنيه إلى الأخرى تقريباً... وسقط الولد على الأرض... ورأسه يكاد ينفصل عن جسده والدماء تغطي أرضية الممر. وتلفت «دينيس» حوله مطمئناً إلى أن أحداً لم ير ما حدث... وكان على يقين من أن الصبي كان يصارع سكرات الموت فسارع بالقفز إلى مؤخرة شاحنة التوزيع وكرّ راجعاً إلى مكتب صحيفة «الكوستشنر» حيث قابل محرر الفترة المسائية «كيلي مالوي» ذاك الذي تدرج في سلم الصحافة سريعاً وهو بعد في الثلاثين لما يزل.

وكان «مالوي» هذا عنيفاً في تخاطبه رغم أن وجهه الأنثوي كان يوحي بالرقة وقد عين في منصبه خلال مقايضة أريد بها دفع عجلة التوزيع الذي كان «دينيس» أفضل موظفيه.

وعندما أكد له «دينيس» بأن أحداً لم يشهد الموقعة... تنفس «مالوي» الصعداء قبل أن يفرك يديه معلناً أن تلك الحادثة تستحق ملحقاً خاصاً... واستحال كتلة من الطاقة وهو يهم بالشروع في إصدار ذلك.

بعد برهة... كان «دينيس» يمتطي شاحنة التوزيع ثانيةً حاملاً ملحقاً توسطته هذه العبارة:

مقتل بائع صحف!

ولايزال القاتل حراً طليقاً!

مقتل صبي من الشمال خلال مشاجرة مشتبه بها بين عصابات الحي.

في ذلك الوقت... كانت صحيفة «الكوستشنر» تقود حملة عشوائية جريئة ضد العنف فيما حملت المقالة الافتتاحية عبارات محمومة... مستعرة مطالبةً رجال الأمن بتطبيق القانون وخفض معدلات الجريمة!

openkandil.com